الماضي توطئةٌ لما بعد

روما القديمة تقدم دروسا عن أهمية التنمية المستدامة

أنطوني أنيت وجوشوا ليبسكي

تلخِّص التنمية المستدامة فكرة أن التقدم المادي يجب أن يترافق مع الإدماج الاجتماعي واحترام البيئة. ذلك أن فصل النمو الاقتصادي عن الركيزتين الأخريين يعد عملاً من أعمال التدمير الذاتي. وتمثل روما القديمة حالة للدراسة توضح كيف تتشكل الأزمات — وكيف يمكن تجنبها.

فقد استمرت الجمهورية الرومانية ٥٠٠ عام بفضل مؤسساتها التي كانت مرنة بالقدر الكافي لمواجهة تحديين كبيرين — وهما النزاع الداخلي بين الأرستقراطيين وعامة الشعب والنزاع الخارجي المتمثل في خصومها من الدول المنافسة، وفي محاولات دمجها للشعوب التي احتلتها. وبالرغم من الاضطرابات المستمرة، التزم الرومان بقيم مشتركة — الفخر بالعمل في مجال الخدمة العامة والتمسك بمفهومهم للصالح العام.

وظلت الأوضاع مستقرة لعدة أجيال، ولكنها لم تستمر على هذا المنوال. فقد حدثت تغيرات واسعة في البداية، حيث أدى توسع الدولة الرومانية — في مطلع القرن الثاني قبل الميلاد، امتدت الجمهورية من بلاد الغال إلى اليونان — إلى تدفق الكثير من الثروات في صورة إتاوات، وضرائب من المقاطعات الجديدة، وإيرادات ناتجة عن تطوير مناجم المعادن. وظهرت فئة جديدة من الرومان فاحشي الثراء الذين استحدثوا أدوات مالية لدمج الديون وإعادة بيعها واستثمار الأرباح في مشروعات البنية التحتية. هل يبدو الأمر مألوفا؟ إنه، من عدة أوجه، يشكل صورة من صور العولمة التجارية والمالية في العصور القديمة. وأدت سنوات الرخاء تلك إلى بلوغ عدد سكان روما حوالي مليون شخص بحلول القرن الأول قبل الميلاد، لتصبح أول مدينة على الأرض تصل إلى هذا التعداد الهائل.

الرسم التوضيحي: GETTYIMAGES/NASTASIC

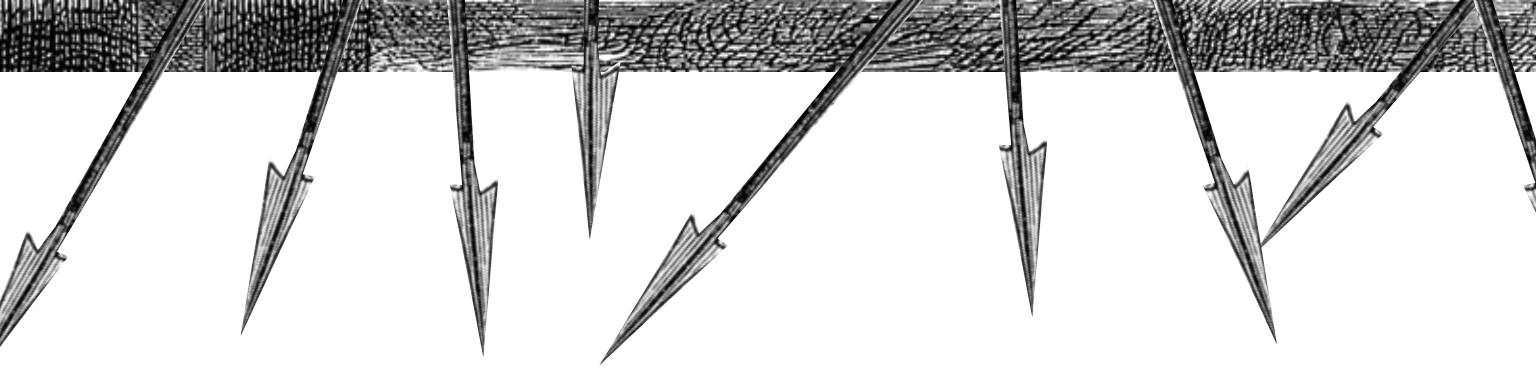

على مدار القرن الأخير من عصر الجمهورية الرومانية، قامت أجيال متعاقبة من القادة بتحطيم المعايير التي كان ينظر إليها في السابق على أنها لا تُمَس.

ولكن الأمور لم تكن جميعها على ما يرام. فالثروة الجديدة لم تكن موزعة على نطاق واسع. واجتاحت أعداد كبيرة من العبيد سوق العمل تاركين الجنود والمواطنين دون عمل مما ولَّد لديهم شعورا متزايدا بالغضب. وكما أشار إدوارد واتس في كتابه الجديد بعنوان *Mortal Republic*، فإن مراكمة الثروات أصبحت في ذلك الوقت هي المقياس الأساسي للنجاح بدلا من النزاهة الشخصية وخدمة مصالح الدولة. ولم ينفق صفوة الشعب ثرواتهم الجديدة على المنازل الفاخرة والسلع الترفيهية فقط، بل تورطوا في أعمال رشوة وفساد واسعة النطاق للحصول على الأوسمة والمناصب السياسية والإفلات من قبضة القضاء.

وربما لا يوجد شخص يعكس ديناميكيات هذا العصر أفضل من ماركوس ليسينيوس كراسوس. فثروته — التي تولَّد معظمها من المضاربات الفاسدة في سوق العقارات — كانت من الضخامة بحيث أصبحت تعادل موارد الخزانة الرومانية كلها. وبوصفه ممولا لمئات السياسيين، فقد أكسبته ثروته نفوذا واسعا غير مسبوق.

ولم يمض وقت طويل حتى تفجرت الأمور. وكانت النخب في القرون السابقة تتعامل مع السخط الشعبي من خلال اقتسام السلطة وتعديل التوازنات السياسية. ولكن السعي وراء المصلحة الشخصية واستشراء الفساد أديا إلى شق الصف.

وتكرر هذا النمط مرارا خلال القرن الأخير في عصر الجمهورية الرومانية — غضب الشعب في مواجهة تعنت الأرستقراطيين، مما أدى إلى تجاوزات من الجانبين انتهت غالبا بالعنف.

وبدأت دائرة النزاع بالأخوين غراكوس، تيبيريوس وغايوس. فقد حث تيبيريوس على إعادة توزيع الأراضي على الفقراء. ولكن خطة الإصلاح التي اقترحها واجهت معارضة من المحافظين انتهت بقتله ضربا بالهراوات. وقد حمل أخوه الأصغر غايوس درع الإصلاح من بعده، مركزا على توفير الحماية الاجتماعية — في صورة دعم على الحبوب الغذائية — ومكافحة الفساد من خلال الإصلاح القضائي. ولكنه قتل هو الآخر.

وبعد انتهاء هذه الفوضى، صعد نجم غايوس ماريوس كنصير للفقراء وقاد موجة من الغضب الجماهيري ضد فساد مجلس الشيوخ. ولكنه تحالف في نهاية المطاف مع الأطراف الراغبة في استخدام العنف للأغراض السياسية، مما أثار ثائرة النبلاء واستنفر النزعة الديكتاتورية لدى سول الذي أقدم على ما لم يخطر على بال، حيث قاد جيشا عبر حدود روما، وشاع خلال فترة ملكه نفي أعداد كبيرة من المواطنين ومصادرة الممتلكات والنيل من سلطة الشعب.

وفي الأعوام اللاحقة، سعى بعض الأرستقراطيين المجردين من المبادئ مثل كاتالين وكلوديوس إلى الحصول على مناصب أعلى من خلال استغلال الغضب الشعبي — بما في ذلك اللجوء أحيانا إلى العنف والتهديد.

وقد مهدت جميع هذه الأحداث لظهور يوليوس قيصر الذي استخدم أساليب القوة في تنفيذ الإصلاحات الشعبية. ولكن بعد انتصاره في حرب أهلية، نال هو الآخر لقب ديكتاتور وأصبح أكثر استبدادا. وأدى مقتله إلى حلقة أخرى من النزاعات الأهلية التي شهدت الكثير من الضحايا، مما أدى إلى سقوط الجمهورية.

وعلى مدار القرن الأخير من عصر الجمهورية الرومانية، قامت أجيال متعاقبة من القادة بتحطيم المعايير التي كان ينظر إليها في السابق على أنها لا تُمَس. وأصبح العنف السياسي أمرا معتادا. وتم تسليح مؤسسات الدولة لقمع المعارضين. وزاد غضب عامة الشعب. واقترح القادة اللجوء إلى القوة لاستعادة النظام. وكان الدافع وراء جميع هذه الأحداث هو تفاقم عدم المساواة والفساد.

وعقب انهيار الجمهورية، شهدت روما انتعاشا ملحوظا — بالرغم من أن تحقيق السلام كان في جزء منه على حساب قمع المؤسسات الديمقراطية. ووفقا لإدوارد غيبون، المؤرخ الكبير لفترة سقوط روما، فإن أزهى عصور الإمبراطورية في القرن الثاني الميلادي كان الفترة «الأكثر سعادة ورخاء في تاريخ الجنس البشري».

غير أن ما لم يعلمه غيبون هو أن ذلك الحظ الجيد كان في معظمه نتاجا للأحوال المناخية الملائمة. وكما أشار كايل هاربر في كتابه الجديد الشهير بعنوان *The Fate of Rome: Climate, Disease, and the End of an Empire*، فإن الفترة الفاصلة بين العام ٢٠٠ قبل الميلاد والعام ١٥٠ بعد الميلاد تُعرف حاليا بفترة المناخ الأمثل في روما — مناخ دافئ رطب غير متقلب ومناسب تماما للمحاصيل الزراعية الأساسية التي تنتجها الإمبراطورية.

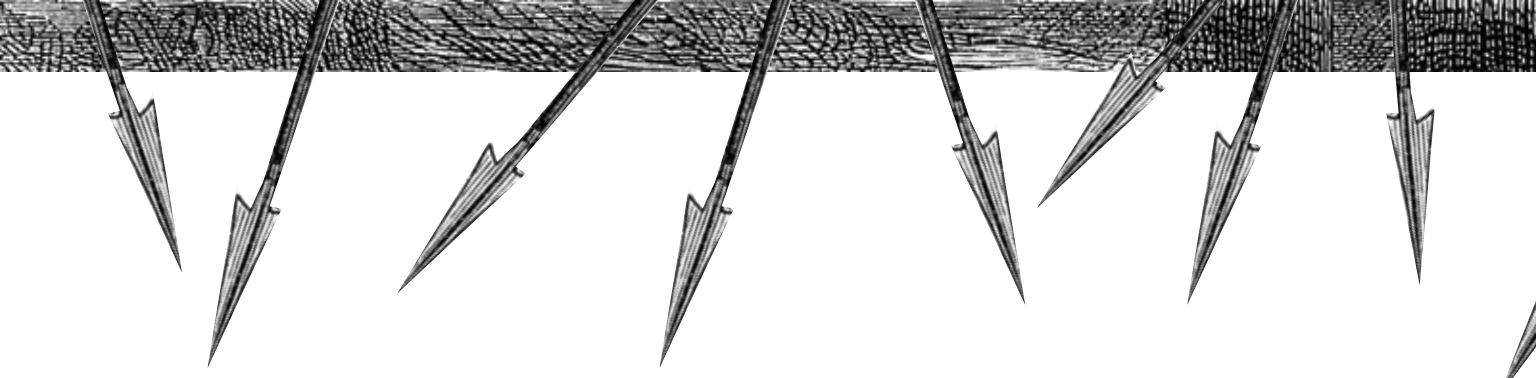

ولكن بحلول القرن الثالث، أصبح المناخ أكثر برودة وجفافا وتقلبا مع تكرار موجات الجفاف وتلف المحاصيل. وشهد منتصف القرن الخامس «العصر الجليدي الصغير القديم المتأخر».

وأثر تغير المناخ بالسلب على قدرة الإمبراطورية على مواجهة العديد من الصدمات، بما في ذلك الأوبئة. فقد ظهر مرض الجدري في القرن الثاني، وشهد القرن الثالث تفشي مرض شرس ربما كان الإيبولا. وفي منتصف القرن السادس، قتل طاعون جستنيان حوالي نصف شعب الإمبراطورية — وهي المرة الأولى الموثقة لظهور الطاعون الدبلي.

وتشير الشواهد الأخيرة إلى دور تغير المناخ. فالعقد الذي سبق انتشار الطاعون شهد أقل درجات الحرارة في أوروبا خلال ألفي عام، والتي نتجت عن سلسلة من الثورات البركانية المدمرة. وقد أدى ذلك على الأرجح إلى خروج اليرابيع والفئران الجبلية من موطنها الطبيعي في وسط آسيا، وانتقلت العدوى من البراغيث الحاملة للبكتيريا على أجساد هذه الحيوانات إلى الفئران السوداء التي انتشرت انتشارا كبيرا في جميع أرجاء شبكة التجارة الرومانية الواسعة.

ومن المؤكد أن سقوط روما نتج عن العديد من الأسباب، بل إنه يظل الحدث الذي اجتمع فيه أكبر عدد من الأسباب في التاريخ البشري. ولكن يبدو أن التأثير السلبي للعالم الطبيعي على العالم البشري كان أحد أهم هذه الأسباب، وهو ما يؤكده حاليا عدد متزايد من الشواهد.

وأدت قوى الطبيعة العدوانية تلك إلى إضعاف الإمبراطورية التي بدأت في التفكك في القرن الثالث. وشهدت هذه الفترة حالة مستمرة من عدم الاستقرار السياسي، وضغوطا على الحدود، وأزمة مالية اشتدت وطأتها بسبب تراجع قيمة العملة. وعقب انتعاشة اقتصادية قوية في القرن الرابع، تدخلت البيئة الطبيعية مجددا — حيث أدت موجة جفاف حادة في أوراسيا إلى هجرة أفراد قبائل الهون الذين أطلق عليهم هاربر وصف «لاجئي المناخ المهاجرين على ظهور أحصنتهم». ونتج عن ذلك ما يشبه تأثير الدومينو، حيث هاجرت أعداد كبيرة عبر الحدود الرومانية، مما أدى في نهاية المطاف إلى انهيار الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس. وأعقب ذلك في القرن السادس ثلاثي مرير جمع بين تلف المحاصيل نتيجة تغير المناخ، وكارثة الطاعون، والحرب المدمرة. وتراجع عدد سكان روما في هذه الفترة ليصل إلى حوالي ٢٠ ألف شخص — وتحول المنتدى الروماني إلى حقل أبقار (*campo vaccino*).

وقد سقط كل من الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية بسبب فشل كلتيهما في اختبار التنمية المستدامة.

وثمة عظات وعبر مستمدة من أسباب هذا الفشل يمكن الاستفادة منها في الوقت الحالي — تحطيم المعايير الاجتماعية الراسخة، والاستقطاب السياسي القوي الناتج عن عدم المساواة الاقتصادية، وعدم حرص النخب على المصلحة العامة، والدمار البيئي الذي أدى إلى مجموعة من الأمراض والكوارث.

وينبغي أن نعي تماما هذا الدرس، لا سيما ونحن نرى أوجه تشابه مخيفة ومقلقة بين الحاضر والتاريخ. ويشير ذلك إلى ضرورة تحقيق أهداف التنمية المستدامة، تلك الدعوة العالمية إلى إنهاء الفقر وحماية الكوكب وضمان السلام وتقاسم الرخاء. فالتجربة الرومانية تشك نافذة نظل منها على مستقبلنا الممكن حال فشلنا في التصرف.

سقط كل من الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية بسبب فشل كلتيهما في اختبار التنمية المستدامة.

ولا شك أن هناك بعض الاختلافات المهمة بين اقتصادنا واقتصاد روما القديمة. فاقتصادنا أوسع ثراءً وأفضل صحة وأشد صلابة وأكثر شمولاً للجميع. فالرومان لم يكن بمقدورهم القضاء على جميع أشكال العوز المادي، ولكنهم كانوا يستطيعون، بل كان يجدر بهم، بذل جهد أكبر في مواجهة أشكال عدم المساواة الناجمة عن تجربتهم مع العولمة. أما نحن فبمقدورنا القيام بالأمرين.

ونستطيع كذلك حل مشكلة تغير المناخ التي تمثل أكبر التحديات التي تواجه جيلنا. وكان الرومان تحت رحمة الطبيعة، فأنشطتهم لم تكن هي السبب الرئيسي وراء تحول المناخ، لذلك لم يكن بمقدورهم إبطاء هذا التحول أو إيقافه. ولكن بما أن النشاط البشري هو المحرك وراء تغير المناخ الذي نشهده اليوم، فبالتالي يمكن مواجهته من خلال تغيير سلوكياتنا — أي وضع نظام للطاقة خال من الكربون خلال العقود الثلاثة القادمة.

ونخلص مما سبق إلى نتيجة أساسية، وهي أن التنمية المستدامة تكتسب أهمية دائمة وأبدية — سواء في العام ١٣٠ قبل الميلاد، أو في عام ٥٣٠، أو عام ٢٠٣٠. FD

أنطوني أنيت مساعد مدير و**جوشوا ليبسكي** مسؤول أول لشؤون التواصل في إدارة التواصل بصندوق النقد الدولي.